إبراهيم نصر الله❖

ماذا لو سألونا فجأةً: ما الذي فعلتموه بأناشيدنا؟

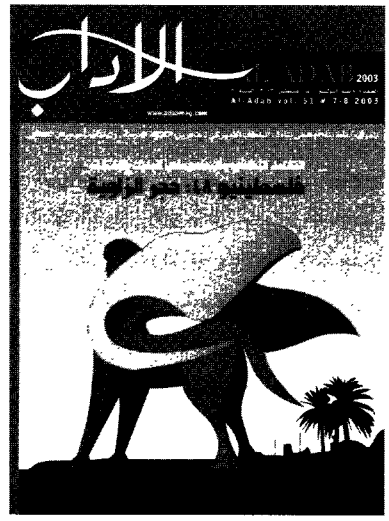

توضيح:

وقع خطأان في مقال د. سليم مخولي في العدد الماضي. فهو طبيب عائلة، لا اختصاصي في الأمراض الداخلية. وهو عضو في الهيئة الإدارية لجمعية «إبداع» للفنانين التشكيليين، لا رئيسُها.

مضى زمن طويل قبل أن نَفْتح هذه النافذةَ لنُطلَّ عليهم، لنتفقَّدَ ما ضاع منا وظلَّ فيهم. حتى لكأنّنا كنّا نَهْرب من سؤالنا عنهم، وعن منسوب الحياة فيهم، خائفين من أن يكون السؤالُ تأكيدًا لهذا الموت الذي يعترينا.

مضى زمن طويل قبل أن نتفقَّد أشجارَهم، تلالَهم، وخطواتِ أطفالهم في الأناشيد التي يُعِدّونها لهم يومًا بعد يوم، وهم يستيقظون كلَّ صباح كي يتفقَّدوا شمسَ يومهم التالي.

لم يكن مصادفةً أن نكتفي بجرعة النور التي أشرقوا بها ذاتَ يوم قبل أكثر من أربعين عامًا، حين قدَّم الشهيد غسان كنفاني كتابَه الرائد **أدب المقاومة في فلسطين المحتلة (١٩٤٨ ـ ١٩٦٦)** وألْحقه بكتابٍ آخر: **الأدب الفلسطينيّ المقاوم تحت الاحتلال (١٩٤٨ ـ ١٩٦٨)**. كما لو أنّنا لم نكن بحاجة سوى لجرعةٍ واحدةٍ من هذا النور، الذي لن نستطيع القبضَ عليه تمامًا في حُمّى وحِمَى هذه العتمات التي تَسْكن جوانبَنا في هذا العالم العربيّ الممتدّ بين ماءين وأكثر من صحراء.

لم نتعلَّم ما يكفي من وصاياهم. ولذا كان من الطبيعيّ أن يواصلوا وحدَهم العيشَ على قيْدها، كما يعيشون على قيْد حياتهم، أو لنقلْ حرية أرواحهم رغم كلّ شيء.

وفي زمنٍ عربيّ يتمّ فيه اختزالُ الأشياء، تمّ اختزالُ «قلب» الشعب الفلسطينيّ هذا بما أبْدعه كتّابهُ في ذلك الفجر البعيد. كما لو أنّهم كانوا أحياء هناك ولم يعودوا اليومَ كذلك. كما لو أنّ أشجارهم لم تعد تُورق، وحقولَهم لم تعد تتذكر خضرتَها، وأطفالَهم لم يعودوا قادرين على معرفة الطريق إلى غدهم. أو كأنّ أغانيهم لم تعد قادرةً ـ بالجرأة نفسها ـ على احتضان شوقهم العظيم إلى الحرية!

كان أحد الأصدقاء القادمين من فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ يحدّثنا منذ مدة أنّه قابَلَ ذاتَ يوم رجلاً مُسنًّا هناك. وبعد دقائق قال له الرجلُ المسنّ: «لن يرتاح لي بال، ولن تغمض لي عينٌ، قبل أن أعود إلى وطني. فكل يوم أُحسّ بأنّني أزداد غربةً وتزداد حياتي وحشةً بعيدًا عنه.» قال له صديقُنا: «ولكنّكَ على بعد خمسة كيلومترات من قريتك.» فردّ الرجل المسنُّ: «أعرف ذلك. ولكنْ هل تَعْرف الطولَ الحقيقيَّ لهذه المسافة حين تكون ممنوعًا من الوصول إلى عتَبَةِ بيتِكَ الأول؟» ثم صمت وسأل: «قلْ لي، ما الفرق بيني وبين أيّ إنسان اقتُلِعَ من قريته ويعيش الآن في الأردن أو لبنان أو فلسطين، حين يكون غيرَ مسموح لأيٍّ منّا أن يصل إلى ما يريد؟!»

❖ ـ شاعر وروائيّ فلسطينيّ مقيم في عمّان.

لكنّ هذه الغربة المُرّة المعلنة، إنْ أكّدتْ شيئًا، فإنّها تؤكّد أولَ ما تؤكّد إصرارًا فذًا على أن يكون المرءُ حيث يجب أن يكون.

...

يأتي عدد الآداب المكرّس للنشاط الثقافيّ والإبداعيّ في الجليل والمثلث ليُذكّرَ بحقيقتيْن مضيئتيْن: حقيقة أنّ هناك مَنْ لم يزل يكتب ويرسم ويغنّي ويواصل الطريقَ بروح لا تَقْبل الهزيمة؛ وحقيقة وجودِ مدًى يَحْتضن هذه الروحَ بكلّ تجلياتها، ونعني هنا مجلة الآداب التي لا تتوقف عن لعب دورها في زمن الحرص على ضياعِ الأدوار وتمييعِ الحقائق واختزالِها.

ولم يكن المعنى العميقُ لكتابَيْ غسان، في ذلك الزمان الذي يبدو بعيدًا إلى حدٍّ غيرِ عاديّ في تقويمنا العربيّ، مختلفًا عن المعنى العميقِ الذي تلعبه الآداب ورعاةُ مشروعها وحرّاسُه اليومَ. فإذا كان غسّان أَكّدَ يومَها بفرح غيرِ عاديّ أنّ هناك ما يكفي من الأحياء كي تُثْبت الحياةُ أنّها لم تزل على قيد نفسها، فإنّ عدد الآداب هذا يأتي ليؤكّد أنّ أولئك الأحياء لا يقلّون حياةً الآن رغم كلّ شيء.

نتأمل حالَهم الآن، فنجد أنّهم، وطوال أكثر من نصف قرن، لم يتراجعوا عن أحلامهم، ولم يَتْركوا للهزائم فرصةً للتسلُّل إلى أرواحهم. وفي عصر هزائمنا ظلُّوا يُنْشدون بدأب النَّمْل:

«وحبوبُ سنبلةٍ تموت

ستملأ الوادي سنابلْ.»

ولكنْ ماذا لو سألونا الآن فجأةً: «ما الذي فعلتموه بأناشيدنا؟»

الشيء الأكيد أنّنا نقف اليومَ أمامهم، ولكنْ ليس كالمرة الأولى. فها نحن أقلُّ طموحًا في هذا العالم العربيّ، وأقلُّ أملاً، كما لو أننا نتركهم وحدَهم تحت عبء آمالنا وعبء طموحاتنا وأحلامِنا المجهَضة، ليلعبوا أدوارَنا التي لم نستطع أن نلعبها أو أن نُكْملها في أفضل الأحوال.. إذ لم يعد لدينا من شموسٍ سوى ما خَطَّتْه أيديهم يومًا على ضفاف أرواحنا، وهم يَكْتبون أناشيدَ حريتنا التي يتحسَّسون بها أفقَ حريتهم.

لكنْ، لنعترفْ أنّ العالم العربيّ بدا وكأنه أُتْخم بوجبة الروح الكبيرة تلك التي مَثّلها أدبُ المقاومة. وهكذا ما إنْ وَصَلْنا إلى ضياع الروح هذا حتى اكتَشَفْنا أنّ البحث عن أفقٍ للأمل لم يعد ضرورةً عربيةً مُلحّة، لا لأنّ الأمل لم يعد موجودًا، بل لأنّ هذه الروح المغيَّبة لم يعد الطريقُ موجودًا أصلاً بالنسبة إليها كي تَنْهضَ وتسيرَ حتى ولو على عكّاز.

لم يكن الزمنُ العربيّ الذي أُتْخم بالهزائم، بواقعِ هزيمةٍ كلَّ عشر سنوات تزيد أو تقلّ، هو وحده الذي يشارك في إسدال ستارةِ العماء هذه على ما يبوح به شعبٌ من الطموحات والتطلع إلى الغد المختلف. فقد ساهم النقدُ العربيُّ، الذي اكتفى بالجاهز المنجَز، في تعميق هذه الهوّة بين ما يُكتب هناك وما يُقْرأ هنا، إذ لم يعد لدينا الكثيرُ من النقّاد الذين يشْغلهم صعودُ الجبل.

هكذا تمّ اختزالُ الأدب الفلسطينيّ بالموجة الأولى من الكتّاب والشعراء الذين قَدّموا اقتراحاتهم البارزة. ولعلّ ما أصاب أدبَ الداخل قد أصاب كثيرًا أدبَ المنافي، لأنّ الاختزال هو أكثرُ الأمور مدعاةً للراحة والتخلُّص من المسؤولية. وللمؤسسات الثقافية الفلسطينية أيضًا دورُها الكبيرُ في هذا التغييب أو الاختزال الفقير الذي كان يهمّه، بسطوة إعلامه، أن يُثْبت ويؤكّدَ دون كللٍ أنّ فلسطين أَنجبتْ في السابق، ولم يفكّر القائمون عليه بأنّ عظمتها تَكْمن في أنّها تُواصل الإنجابَ.

لقد تعامل هذا الإعلامُ مع فلسطين الأدب كما لو أنّها استَأْصلتْ رَحِمَها. كما تعامَلَ مع فلسطين السياسة كما لو أنّها استَأْصلَتْ رَحِمَها أيضًا؛ مع أنّ الذين يَكْتبون تاريخَ فلسطين اليوم هم أولئك الذي وُلِدوا بقوة أرواحهم بعد أن تمّ استئصالُ تلك الرَّحِم أو صُوِّرَ للبعض أنّهم استأصلوها باعتبارهم آخرَ الأبناء الذين يستحقون الحياة!

هكذا أخذ النقدُ العربيُّ ـ الذي راح يَفْقد دوره الحقيقيّ بتسارع غريب باستثناء حالات نادرة ـ يبحث عن أعمال أدبية صالحة لزمن الوجبات السريعة ويروِّج للّغو المُسرطن من الكلام. واكتفت المؤسسةُ الثقافية الفلسطينية بما وَصَلَ إليه أبناؤها، لا إلى ما تتطلّع إليه الحياةُ.

ولعلّ ما حدث في السياسة لم يكن بعيدًا عمّا حدث في الأدب. فقد ابتَكَرَ الفلسطينيون، مدفوعين برغبةٍ عربيةٍ رسميةٍ في التحرُّر من القضية لا في تحريرها، اختزالَ كلّ مظاهر الحياة الفلسطينية في شخص واحد أو تنظيم واحد: فأصبح هناك «الممثّلُ الشرعيُّ الوحيد،» وكأنّ قلبًا يَخْفق بحبّ فلسطين في آخر الأرض ومهما كانت جنسيةُ صاحبه لا يحقّ له أن يكون ممثّلاً لفلسطين كلّها! وتطامنت المؤسسةُ الثقافية الفلسطينية في زمن هذا الكسل العربيّ أكثر فأكثر حين اختَزَلَت الأدبَ الفلسطينيَّ في عددٍ محدَّدٍ باتوا الممثّلين الشرعيين لروح الشعب. واختَزَلَت الروايةَ الفلسطينيةَ في ثلاثة أسماء. وبعد الوصول إلى هذا الاختزال تمّ اختزالُ هؤلاء الثلاثة في ثلاث رواياتٍ من إنتاجهم: فأصبح غسان كنفاني هو **رجال في الشمس** لا غير، وجبرا إبراهيم جبرا هو **البحث عن وليد مسعود** فقط، وإميل حبيبي هو **المتشائل** فحسب. وفي هذه الوقائع الفلسطينية الغريبة، المُحصَّنةِ بكسلٍ نقديٍّ غير قليل، لم يعد بإمكان الكاتب أو الشاعر أن يظلّ كاتبًا أو شاعرًا إلاّ إذا كان على قيد سلطةٍ مكرّسةٍ لخدمته، بل على قيد شعب مكرَّس لخدمته: هو الذي يحسّ عن هذا الشعب، وهو الذي يَحْلم، وهو العرّاف

والممثّلُ الشرعيُّ الوحيد لجراحاته وأرواح شهدائه، ساحبًا بساطَ الدمع حتى مِنْ تحت مآقي أمّهات أولئك الشهداء والجرحى.

وقد بلغ الأمرُ حدًا تجاوَزَ الأدبَ كثيرًا في ثقافة الاختزال هذه. فتمّ تجاوزُ الشهداء أيضًا باختزالهم بالصلافة نفسها. فأصبح هناك أميرٌ للشهداء، أو ممثّلٌ شرعيٌّ وحيدٌ لهم، مع الاحترام الشديد والإجلال. وقد كانت المؤسسةُ الرسميةُ الفلسطينية تحوّل، بذلك، الشهداءَ الآخرين إلى مجرد حاشية للشهيد الأمير. ولعلّ هذا كان جوهرَ الحال دائمًا، حتى قبل تفتُّقها عن اختراعها العظيم هذا. ولم يكن الأمرُ كلُّه أقلّ من مأساة، في هذه الفوضى المرتَّبة كي تظل لائقةً بهذا الاختزال.

...

وبعد،

قلّةٌ قليلةٌ هم أولئك الذي يُطلُّون على المشهد الثقافيّ الفلسطينيّ في الداخل (فلسطين ٤٨). وليست الفسحةُ المتاحةُ للأدب في الضفة وقطاع غزّة أفضلَ بكثير إذا ما تذكّرنا أنّ الوضع هناك لا يقلّ مأساويةً: فالمذابح الصهيونية لا تكتفي بتقطيع أوصال البشر وحدهم، بل تَذْهب في مذابحها إلى تقطيع أوصال أراضيهم وأشجارهم وبيوتهم وشوارعهم وجبالهم وتحيّاتِ صباحهم ـ التي ترتفع الجدرانُ العاليةُ بينها، وقد انتصبتْ عبر قريةٍ ما أو مدينةٍ ما لتَمْنع النافذةَ من تأمل أختها في البيت المجاور الذي لم يكن يبعد سوى خطوات.

هناك أدبٌ فلسطينيٌّ يُكتب اليوم، وفي ذلك العمقِ الأكثرِ تجذُّرًا. وهذا يعني أنّ هناك شعبًا لا يكفُّ عن مراودة الحلم والمستحيل. أَوَلَم تقلْ غولدا مائير ذاتَ يوم: «لو كان الفلسطينيون شعبًا لكان لهم أدب؟» ثم ألم يقل أستاذُها ومعلّمها بن غوريون: «سيموت كبارُهم ويَنْسى صغارُهم؟» ولذا، فإنّ الآداب اليوم لا تَعْمل على وصول نماذج من هذا الأدب إلى العالم العربيّ فحسب، بل تَعْمل أيضًا على تجاوز فكرة الاختزال التي أشرنا إليها، وهي تؤكّد أنّ الثقافة يُنْتجها شعب، وأنّ الشعب الذي لا يتمكن من أن يتجدّدَ ويتوالدَ داخل ثقافته هو شعبٌ آيلٌ للموت. وبكلمة أخرى، فإنّ عدد الآداب هذا هو تأكيدٌ على أنّ ثمة حياةً لا تكفّ عن إنجاب أنفاسها وهوائها. ولعلّ مشروعَ دار الآداب المشتركَ مع مؤسسة عبد المحسن القطّان هو التطورُ الطبيعيُّ لطموح هذا العدد بدفع الأمر خطواتٍ حيةً شجاعةً إلى الأمام أكثر.

...

في هذا العدد تتجاور حساسياتٌ مختلفة، وهي جزءٌ أساسٌ من المشهد الثقافيّ الفلسطينيّ هناك، لكنها بالتأكيد ليست كلّه. وبعيدًا عن الأسباب التي يُمْكن أن تُساق هنا حول مدى اتساع هذا العدد، فإنّ الشيء الذي لا بدّ أن يقال هو أنّه لم يسبقْ أن استطاع أيُّ عددٍ مكرّس لساحة ثقافية عربية أن يغطّي كلّ شيء. ولحسن الحظ فإنّ بعض الأسماء التي غابت عن هذا العدد حاضرةٌ، وبعضها سنقرأ له كتبًا ضمن منشورات دار الآداب. لكنّ أكثرَ ما يعنينا هنا هو ملامحُ المشهد العام للثقافة الفلسطينية كما يعبِّر عنها هذا العدد.

هناك الأسماء التي عرفناها وتابعنا إنتاجَها منذ مدة طويلة تَحْضر في كتاباتها الجديدة: حنّا أبو حنّا، محمد نفّاع، طه محمد علي، سعود الأسدي، أحمد حسين، فاروق مواسي، فهد أبو خضرة، حسين مهنّا، سيمون عيلوطي، سهيل كيوان. وهناك كتابات رجاء بكرية، علاء حليحل، أحمد هيبي، عدنيّة شبلي، أحمد سليمان، زهيرة صباغ، جريس دبيّات، صالح حبيب. ولعلّ ما يُسْعد هنا أنّ ثمة حساسياتٍ جديدةً ومختلفةً، ليست منقطعةً عن أجملِ ما يُكتب في العالم العربيّ. والأهمّ من ذلك كلّه أنّ كثيرًا من هؤلاء الأدباء، الذين يُطلون علينا في موجةٍ واحدةٍ على صفحات الآداب، باستطاعتنا تلمُّسُ خصوصيات كثيرين منهم وتميُّزُ إنتاجهم عن إنتاج زملائهم. وهم يؤكّدون، بهذا، الظاهرةَ الأهمَّ لضمان غنى أدبٍ ما، وهي تعدُّدُ أصواته ومذاقاته وحساسياته ولغته وحيويته؛ ذلك لأنّ الأدباء يولَدون في اختلافهم لا في تشابههم في النهاية.

ولعلّ اللافت أيضًا أنّ معضلة الرواية لدى فلسطينيي ٤٨ آخذةٌ في الانفراج ـ فثمة مشكلة حقيقية في هذا المجال استمرت طويلاً. وما يعزّز الأملَ هنا أنّ كثيرًا من الكتابات القصصية المنشورة في الآداب مُشرَعة، بطريقةٍ أو بأخرى، على هواجسَ روائيةٍ؛ وهذا ما يَظْهر من خلال لغتها، ومن خلال اتساع الرقعة التي تتحرّك فيها أحداثُها، وصعيد بنيتها أيضًا.

كما يتيح هذا العددُ فرصةً للّقاء بإبداعاتٍ في مجالات اجتماعية وفنية واجتماعية مختلفة، تعبِّر عن هواجس الحياة اليومية من منظور التحليل المعمّق الهادئ. وحين كنتُ أقرأ بعضَ هذه الدراسات والحوارات كنتُ أحسّ أنّني أقرأ عن هواجس حقيقية ومشكلات تعبِّر عن واقعنا العربيّ هنا وعن أسئلته، لدرجةٍ يُحسّ معها المرءُ أنّ لكلّ منطقة في عالمنا العربيّ احتلالَها الجاثمَ على صدرها... رغم هذه الثقة غيرِ العادية بارتفاعِ ساريات الأعلام!

وقد بدا ذلك واضحًا في تجربة صفاء طمّيش، ودراسات أنطون شلحت، ونايف خوري، وسليم مخولي، وفي الحوار الذي أجراه فراس خطيب مع يوسف أبو وردة.

...

تحتاج هذه النصوص المتنوعة إلى قراءات نقدية بلا شكّ. لكنّ أيّ قراءة تدّعي الإحاطةَ بها ضمن هذا العدد من الكلمات التي تشكّل هذا المقال لن تقول شيئًا في النهاية. ولعلّ هذا ما يَغْفر لكاتبِ هذه الكلمات محاولتَه تأمُّلَ ما آلت إليه حالُ الثقافة الفلسطينية وحالُنا فليس الأعداءُ وحدَهم هم مَنْ يَنْصبون الحواجزَ في طرقات هذه الشمسِ الفلسطينية.

عمّان